· الضوابط التداولية للخطاب الرّسائلي ·
في كتاب ·الإمتاع والمؤانسة· لأبي حيّان التوحيدي

كميلة واتيكي

سنحاول في هذه المداخلة الإجابة عن سؤال تجنيس النّصوص التّراثية المجمّعة في تناثراتها في مصنّفات أدبية تتّسم بطابع التّشتت والاضطراب في بنيتها و موضوعاتها كمصنف"الإمتاع والمؤانسة" الذي ألّفه علي بن محمّد بن العبّاس أبو حيّان التوحيدي (وُلد بين سنتي312 و320 للهجرة ببغداد(1) و الرّاجح في تاريخ وفاته 360 للهجرة و يقال أيضا 414 هـ(2)).

تتراوح النّصوص في هذا الكتاب بين الحكي وأفعال اللّغة، وهذا راجع للوضعيتين التداوليتين اللّتين أفرزتا هذا النّتاج، وهما: وضعية المشافهة ووضعية الكتابة.

ارتبطت وضعية المشافهة بالمقام ومقتضى الحال الذي جمع التّوحيدي بالوزير أبي عبد الله الحسين بن سعدان المعروف بابن العارض(3) في منتدى ليلي للارتزاق بالمسامرة، وذلك لمّا سمع الوزير باهتمام التّوحيدي بكتب الجاحظ، فاستكتبه كتاب"الحيوان"،

و حاوره مشاطرا إيّاه في أعمق المسائل التي قرأها والتي تتّصل باللّغة و الفلسفة و الأخلاق و فروع العلم، واستقى منه معلومات كثيرة تخصّ أعلام العصر وشيوخ الأدب والفلسفة والحكمة في مختلف الأوساط الفكرية. وهذه المسامرات بعددها الأربعين كانت مادة "الإمتاع والمؤانسة".

أمّا وضعية الكتابة فقد ارتبطت بنقل هذه الأحاديث مدّونة بطلب من صديقه أبي الوفاء المهندس ، أحد ندماء الوزير، وهو محمّد بن يحيى البوزجاني(4)، الذي أسدى معروفا لأبي حيّان بأن توسّط للوزير بأن يسامره حتى يُيسّر حاله العسيرة.

و أرسل التّوحيدي هذه الأحاديث مدوّنة إلى أبي الوفاء في ثلاث مراحل مختلفة مع غلامه الذي يُدعى فائق، في ثلاثة أجزاء تحتوي على أربعين سَمَرا. ويصف "القفطي" الكتاب قائلا:

" وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنّه خاض كلّ بحر وغاص كلّ لجّة، وما أحسن ما رأيتُه على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقليّة"(5).

اخترنا نص الرّسالة التي أرسلها التوحيدي إلى صديقه أبي الوفاء، المدوّنة في توطئة الكتاب، حتى نتبيّن القواعد التداولية التي فرضتها وضعية الكتابة ومقام التراسل، حيث تقدّم للقارئ صياغة تمثيلية لافتة لعلاقة المرسِل/المتكلّم(التوحيدي) بالمرسل إليه(أبي الوفاء) عبر أفق حديث مكتوب يتّسم بطابعيْ الاستقلالية والانغلاق. فأما الاستقلالية فتتجسّد بتمثيل الرسالة لبنية موضوعاتية منسجمة بإحكام صنعت خطاباً دالاً مرتبطا بقصدية تداولية. وأمّا الانغلاق فيجسّد ميزة النّص الرّسائلي الذي يحمل بداية ونهاية.

إختار التوحيدي هذا الجنس الأدبي"الرسالة" – ويراد به "ما ينشئه الكاتب إلى غيره من الأغراض، قد تشمل الخطاب كما قد تشمل الجواب ومنه التوقيع، وتشمل أيضا المقالات الإنشائية كوصف الصديق لابن المقفّع والكتاب للجاحظ، كما تشمل المناظرات الأدبية"(6) – لأنّها تعتمد على محاورة الآخر في إطار علاقة تدرّجيّة (علاقة مُثقفٍ مستكينٍ بأحد ندماء

الوزير)، والتي حققت الثنائية والمغايرة والانفصال على مستوى الكلام وصيغ أدائه وأفعاله وأبعاده المعرفية والفكرية.

سنبلور مفهوم التلفظ الرّسائلي Enonciation épistolaire حتى نتبيّن خطاب الرسالة من خلال خطاب الذّات المتلفظة باعتبارها طرفا أساسا من أطراف هذا التواصل المكتوب، لأنّ هذا الكاتب لم يبتعد عن مقتضيات الوضعية الخاصة إلى الكتابة المضادة لها، بل عمد إلى تسجيل كلام أبي الوفاء حتى يكون خطابا ثانيا موجّها إليه، مع العلم أنّ الرّسالة لا تتطلب دائما هذه المحاورة التي تستدعي إجابة ما، والتّوحيدي لم يكن همّه الحصول على الإجابة وإن كان يرغب في ذلك لمَا اختار المواجهة بالكلام المنطوق عوض التواصل المكتوب، و التواصل الرّسائلي وإن كان ذا طبيعة كتابية ، فإنّه سيستدعي حتما إجابة مؤجلة(7).

1- وضعية ومقام التراسل

ونسجّل أنّ لمقاصد النصّ الخارجي دورا حاسمًا في ضبط معايير الكلام في هذه الرّسالة، المدوّنة في توطئة كتاب "الإمتاع والمؤانسة"، وقد آثر التّوحيدي أن يستخدم هذا النّوع من التّواصل المكتوب لمتلقٍ حاضرٍ ومعاصرٍ لزمن تأليفها، حتى يتجّنب المواجهة التي قد تحول دون التّصريح بالخطاب الذي أراد توجيهه للمرسل إليه.

لقد استعاد التّوحيدي في نصّ رسالته الكلمة الغيرية(كلام أبي الوفاء المهندس) بثقلها، وقد عمد إلى ذلك عمداً، حتى يرسي بنبهاته هذا المقام وعناصره، صانعاً بذلك سياقاً أدبيا Contextualisation لدفع حركية هذه الرّسالة إلى متلقٍ حاضرٍ في زمن التّأليف، و هكذا يصبح كلام هذا النصّ الرّسائلي محكما وبعيدا عن الارتجال والمشافهة، ناقلا إيّاه بأمانة ومستشهدا عن وضعه وحاله بكلام الغير.

و استطاع التّوحيدي بذلك ضمنيا في توطئة كتابه أن يسترعيَ اهتمام المرسل إليه(القارئ)، ويفرض كلمته التي كادت أن تغيب من نصّ الرّسالة-

أو بالأحرى كانت كلمة خاضعة- للتحدّث عن نفسه ووضعه وحاله، لأن " كلّ أثر أدبي يعتبر خرقا، لكونه يفرض كلمته، ولأنّه لا يتحدث إلاّ على مؤلّفه سواء كان ذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، مجبرا المرسل إليه على أن يهتم به. ويعدّ هذا الخرق Transgression عادة تلميحياً، بل ومستترا، بانتماء هذا النّتاج إلى نوع معروف قد يكون منظومة أدبية. وقد يلجأ الكاتب على الأقل إلى التبرير، إذا ما تعلّق الأمر بنصوص السّيرة الذّاتية، فيصبح عندئذ مُجبراً على أن يجيب مسبقاً على السّؤال :"في ماذا يهمّنا هذا؟ "(8).

لقد فرض الكاتب من خلال رسالته ومضمونها كلمته على القارئ، محترما بذلك قانون الإخبارية(9) La loi d'informativité بتعريف القارئ بمراحل إنجاز كتابه، والشروطِ التي فُرضت عليه فرضاً. إنّه قد حدّد بذلك نِتاجه بالنسبة لقوانين الخطاب، و منها قانون الإخبارية لإضفاء سيرورة الشرعية الذاتية(10) Processus d'auto légitimation على خطابه، بإيراد وضعيته الخاصة والذاتية التي لا تتماثل حتما مع وضعية كاتب آخر، والتي أنتجت أثره الفني"الإمتاع والمؤانسة".

2- كلام المرسل

و يتحوّل الكلام من وضعية المشافهة إلى وضعية الكتابة، باستخدامه بعض التّقنيات التي تفرضها الكتابة الرّسائلية، كافتتاح الرسالة بالبسملة المعهودة في الخطاب الديني، ثمّ إعقابها بثلاث جمل مفيدة، معطوفة فيما بينها بالواو، ومنتهية بعطفها على الجملة الأخيرة، وهي الجملة التي من المفروض أن تأتي بعد البسملة مباشرة، وهي الحمدلة و كذا الصّلاة على النبي وعلى آله الطاهرين.

"بسم الله الرحمن الرحيم

نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين و وصل إلى خيرات الآخرة من كان من الزّاهدين، وظفر بالفوز والنّعيم من قطع طمعه من الخلق أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على نبيّه وآله الطاهرين"(11).

وتتصّل الذات الكاتبة مباشرة بموضوع خطابها بعد هذه المتتالية من الجمل بعد إيراد عبارة"أما بعد"، التي تدلّ على الاتصال بموضوع الحديث والالتزام باللباقة في مواجهة المرسل إليه قائلة:"فإنّي أقول منبّها لنفسي، ولمن كان من أبناء جنسي،من لم يطع ناصحه بقبول ما يسمع منه ولم يملّك صديقه كلّه فيما يمثّله له ولم ينقد لبيانه فيما يريغه إليه ويطلعه عليه، ولم ير أنّ عقل العالم الرّشيد فوق عقل المتعلّم البليد، وأنّ رأي المقرّب البصير مقدّم على رأي الغمر الغرير، فقد خسر حظّه في العاجل، ولعلّه يخسر حظّه في الآجل"(12) لتضفي مركزية على نصّ خطابها وكلامها،وذلك في حالة غفلتها أمام الحضور القوّي للمرسل إليه، منبّهة إيّاها بعواقب عصيان صاحب الفضل عليها و صاحب المكانة عند الوزير،وفي هذا الموضع تتأكّد هذه العلاقة الانفصالية مع المخاطَب. ثمّ ينصرف المتكلّم من وضعية مخاطبة النفس إلى الإخبار عن العواقب الوخيمة الناتجة عن معصيته الصديقَ خوفا من خسران العاجل والآجل (ارتزاقه بمسامرة الوزير ابن العارض، وامتداد الفائدة في المستقبل). و تجسّد هذا الانتقال كلاميا بأسلوب الإلتفات وهو" انصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك. ومن الإلتفات الانصرافُ عن معنىً يكون فيه إلى معنىً آخر"(13)، في قوله: "من لم يُطعْ ناصحَه بقَبول ما يسمع منه، يُمثّله له، يُريغه إليه، يطلعه عليه...". وفي هذا الأسلوب إنقاذ للسّامع من الغفلة وتنشيطٌ له وتطريبٌ له بنقله من أسلوب إلى آخر ، ومن خلاله يستميله للإصغاء إلى ما يقوله.

و يتوجّه التّوحيدي للمرسل إليه بصيغ كلاميةٍ أملاها المقام الذي جمع بينهما، ويدعمها الدّعاء في صيغة الطّلب قائلا:"أسأل الله بعد هذا كلّه ألا يُسهم وجهي عندك، ولا يَزلّ قدمي في خدمتك ولا يزيغني إلى ما يقطع مادة إحسانك وعائدة رأيك ويافع نيّتك وجميل معتقدك بمنّه ولطفه"(14).

و يستخدم المتكلّم هذا الأسلوب للتضرّع إلى الله لتمكين مقاصده عند هذا الصديق، "والدّعاء يكون صادرا من الأدنى إلى الأعلى شأنا ومنزلة"(15)، ولا يشترط أن يحصل هذا المطلوب وقت الطلب، بل يمكن أن يتأخّر حسب الظروف التي ستجمعه بالطرف الآخر.

و استخدم الدّعاء في موضع آخرَ من نصّ الرّسالة داعياً للأبي الوفاء بالسّلامة والنّعمة والكرامة قائلا:"قد فهمت أيّها الشيخ-حفظ الله روحك- ووكّل السلام بك، وأفرغ الكرامة عليك، وعصب كلّ خير بحالك، وحشد كلّ النّعمة في رحابك ورحم هذه الجماعة الهائلة من أبناء الرّجاء والأمل بعنايتك"(16).

و يليق هذا الأسلوب أي الدّعاء بوضعية المتكلّم المستكين في حال مخاطبة الصديق صاحب المكانة عند الوزير وصاحب الفضل عليه، والذي ألِف هذا النّوع من الصّيغ، لكونه هو أيضا من ندماء الوزير ابن العارض.

3 – كلام المرسل إليه

يسجّل كاتب الرّسالة في النّصف الثاني منها كلام أبي الوفاء المهندس بكلّ نعوته وأوصافه في صيغتها الشّفوية، النّاتجة عن تيّقنه المسبق من أنّ التوحيدي لن يطلعه على مضامين المسامرات؛ يقول:"فكان من حقي عليك في هذه الأسباب التي ذكرتها، وفي أخواتها التي تركتها، كراهة بك أنّك تخلو بالوزير-أدام الله أيامه- لياليَ متتابعة ومختلفة، فتحدّثه بما تحبّ و تريد، وتلقي إليه ما تشاء وتختار، وتكتب إليه الرّقعة بعد الرّقعة، ولعلّ في عرض ذلك تغدو طورك بالتّشدّق، وتجوز حدّك بالاستحقار، وتتطاول إلى ما ليس

لك، وتغلط في نفسك، وتنسى زلّة العالِم وسَقْطة المتحري، وخجلة الواثق..."(17). ولهذا السبب عمد أبو الوفاء إلى استخدام صيغ كلامية تنّم عن التطاول والاستعلاء والتجبّر ، وهذا – هنا تحذف اللا – يليق بمكانته لأنّه كما وصفه أحمد أمين رجل جليل القدر(18).

يخاطب أبو الوفاء التوحيدي موبّخا ومحقرا ، والتوبيخ " يكون في الأمور التي لا يجب أن تصدر من الإنسان"(19)، أمّا التحقير "هدفه الازدراء بالمخاطَب والتقليلُ من شأنه"(20)، قائلا:" هذا وأنت غِرّ لا هيئة لك في لقاء الكبراء، ومحاورة الوزراء، وهذه حال تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك، وإلى مِران سوى مرانك و لِبسةٍ لا تشبه لبستك، وقلّما من قَرُب من وزير خدمَ فأجادَ، وتكلّم فأفادَ، إلا سَكَرَ، وقلّ من سكرَ إلا عثرَ، وقلّ من عثر فانتعشَ، وما زهد في هذه الحال كثيرٌ من الحكماء الأولين والعباد الرّبانيين إلا لغلظها وصعوبتها ومكروه عاقبتها، وشدّة الصّبر على فوارضها وروائبها، وتفسّخ المتن بين حوادثها ونوائبها"(21).

و يعلن أبو الوفاء في خطابه الصّارم والنّافذ أنّ هذه الوساطة التي أوصلت أبا حيّان بالوزير قد تفصله في أي وقت إذا أعلن العصيان، قائلا:" والعجب أنّك مع هذه الخلّة، تظنّ أنّها مطويّة عنّي وغافية دوني، وأنّك قد بلغت الغاية وادع القلب، وملكت المكانة ثاني العنان، وقد انقطعت حاجتك عنّي وعمن هو دوني، ووقع الغنى عن جاهي وكلامي ولطفي وتوصيلي، وجهلت أنّ من قدر على وصولك يقدر على فصولك، وأنّ من صعد بك حين أراد، ينزل بك إذا شاء، وأنّ من يُحسِن فلا يُشكَر يجتهد في الاقتصاد حين يَعذِر"(22).

و يبدو من هذا الكلام أنّ التوحيدي رفض اطلاع صديقه على مضمون المسامرات، فجاء ردّ فعله عنيفا، فاستعمل صيغتيْ الأمر: فانتظر وتوقّع، حتى ينقاد لأمره "إلا أن تطلعني جميع ما تحاورتما".قائلا:"ومتى لم تفعل فانتظر عقبي استحياشي منك، وتوقّع قلّة غفولي عنك، وكأنّي بك وقد أصبحت حرّان حيران يا أبا حيّان، تأكل إصبعك أسفا، وتزدرد ريقك لهفا،

على ما فاتك من الحوطة لنفسك، والنظر في يومك لغدك"(23)، والأمر "صيغة تستدعي الفعل أو قولٌ ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء، والمقصود بالاستعلاء أنّ الآمر ينظر لنفسه على أنّه أعلى منزلة ممن يخاطبه أو يُصدِر إليه الأمر، سواء كان هذا الأمر عاليا في الواقع أم لا " (24).

واستخدم المخاطِب صيغة الإهانة التي بالغ فيها صاحبُها في تحقير المخاطَب وازدرائه قائلا:"أتظنّ بغرارتك وغمارتك، وذهابك في فسولتك التي اكتسبتها بمخالطة الصّوفية والغرباء والمجتدّين الأدنياء الأزرياء، أنّك تقدر على مثل هذه الحال، وأنام منك على حسن الظّن بك، والثّقة بصدرك ووردك، وأطمئن إلى حكّك وجردك وأتعامى على حرّك وبردك، هيهات، رقدت فحلمت، فخيرا رأيت وخيرا يكون"(25) .

و نستنتج من هذه الأساليب الإنشائية المتحققة ضمن ظروف وأحوال سياقية، أو التي فرضها مقام التواصل الذي اقتضى ضوابط وقواعد تداولية حدّدت صيغ الكلام المستخدم في وضعية التّخاطب بين أبي الوفاء والتّوحيدي، والتي نقلها في صيغتها الشفوية .

و تعدّ تلك الصّيغ الكلامية المستخدمة من قبل الصّديق أدّق مؤشّر على المقام ومقتضى الحال وعلى القواعد التّداولية التي ارتكز عليها هذا التّواصل الشّفوي،ممثّلة في الرّتبة الاجتماعية العالية للمخاطِب، ووضع المخاطَب الخاضع لا محالة لسلطة المخاطِب، وبمعنى تداولي آخر تتحدّد في قدْر المخاطِب بالنسبة للمخاطَب(26).

و تتحدد الأفعال الإنشائية Actes performés في الأفعال التي تنجز طلبا و التي تصف حالة الأشياء Etat de chose، (هناك تعارض قائم بين " أفعال الطلب و أفعال الوصف "(27) Actes de demande vs Actes de description)، و تتمثل في المخطط الآتي :

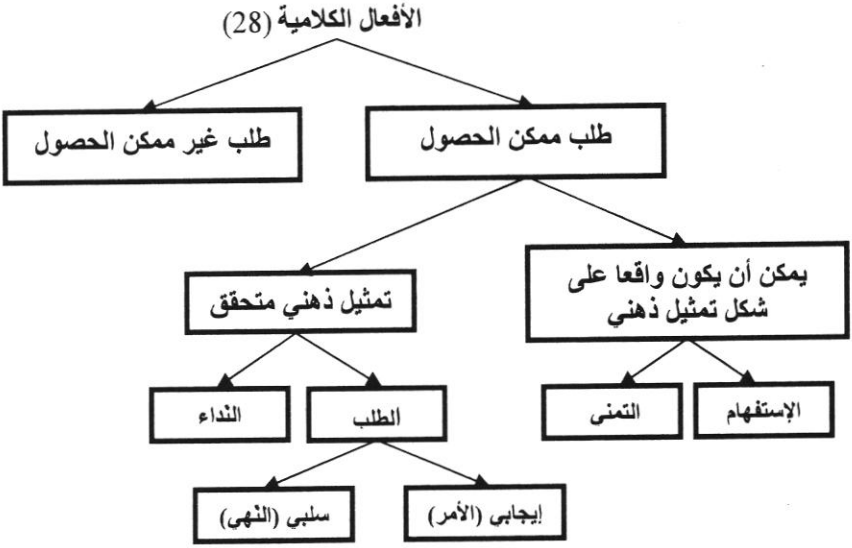

تتمثل القواعد التداوليّة التي ارتبطت بوضعية المتخاطبين في وضعية الوساطة فيما يأتي:

1- توفّر شرط الاستعلاء و السلطة، حيث يوجد أبو الوفاء المهندس في مرتبة أعلى من التّوحيدي في السّلّم الاجتماعيّ.

2- توفّرَ لأبي الوفاء في الأمر الصّادر عنه شرط القدرة على إصدار تلك الأفعال كالأمر و النّهي و النّداء و التّحقير و الإهانة و التّوبيخ، و التوحيدي لم يكن يملك إلاّ واجب الامتثال لتلك الأوامر حتى لا يحرم من منصبه و من حضرة مسامرة الوزير.

إستخدم الوسيط أساليب إنشائية تدخل في معاني الطلب الأصلية: كالإهانة و التحقير و التوبيخ و النّهي و استخدمها في مقام عدم الاعتداد بشأن المخاطَب و المأمور، و تربط كلّ تلك الأساليب بالأمر علاقة اللّزوم، لأنّ طلب الشّيء من غير قصد حصوله لعدم القدرة عليه، يوجب الإهانة

و التّحقير. و هذا ما حدث فعلا في هذه الوضعيّة حيث خشي الوسيط، و عرف نوايا التوحيدي بألاّ يطلعه بما جرى في المجلس اللّيلي، لهذا لجأ إلى التهديد و الإهانة التي لا تتطابق مع الأمر و تخرج عن مقاصده، لأنّه متى يمتنع إجراء الأبواب الخمسة للطّلب –التمنّي، الاستفهام، الأمر، النّهي و النّداء– على الأصل تولّد منها ما ناسب المقام، كمعاني الإنكار و التوبيخ و الزّجر و التهديد و الوعيد و غيرها (29).

و نبيّن هذه الأفعال في المخطط الآتي :

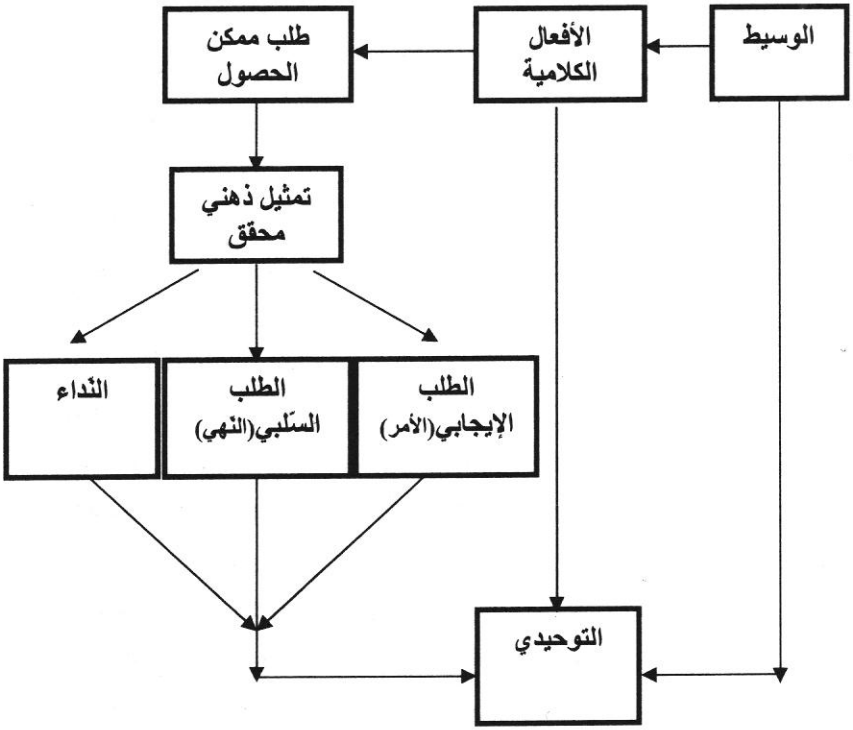

و توافق هذه الأفعال الإنشائية في نظريّة أفعال الكلام الغربية(30) التي أسّسها أوستين Austin أفعال الممارسة و أفعال السّلوك(31). حيث ترجع أفعال الممارسة إلى ممارسة السلطات و الواجبات و التأثيرات مثل تحقيق

تسمية انتخاب، أمر، وعظ، إنذار،... حيث ((يُنجَز فعل ممارسة عند إصدار حكم مناسب أو غير مناسب، حول تصرّف أو حول تبرير، حيث يرتبط في الأمر مثلا على ما يجب أن يكون أكثر من تقدير ظرف معيّن..... و تستلزم هذه الأفعال أنّ الآخر مضطر لإنجاز الفعل))(32)، أمّا أفعال السّلوك، فتشكّل مجموعة متباينة جدّا و متعلّقة بالتّصرفات و السّلوك الاجتماعي، مثل: التهنئات، التوصيات، التعازي، الشّتائم و التّحيات(33).

3- توفّر الاقتناع و الإرادة و النيّة عند الوسيط في توجيه تلك الأساليب الإنشائية إلى التّوحيدي لإطّلاعه على ما دار في مجلس الوزير ابن العارض.

4- توفرت لدى الوسيط في إصداره لتلك الأساليب النيّة في جعله يتأثر و ينجز الفعل. حيث يجب على المتحدِّث Enonciateur أن يصل إلى أن يعرّف المرسل إليه Destinataire بنيّته في إنجاز فعل معيّن. و هذا الذي يبيّنه أثناء حديثه، حيث لا يعتبر الحديث كلّيا حديثا، إلاّ إذا امتُثِل باعتباره معبّرا عن نيّة من هذا النّوع بالنّسبة للمرسل إليه... و يقودنا هذا المعنى إلى عمق الجهاز البراغماتي Dispositif pragmatique المتجسّد في انعكاسية الحديثRéflexivité de l'énonciation ، بمعنى أنّ فعل الكلام أو الإنجاز ينعكس في الحديث(34) ... و يكمن معنى الحديث هذا في القصد أو النيّة نفسها أي في القيمة الإنجازية أو فعل الإنجاز في الكلام، و تتوقف هذه القيمة الإنجازية على مقام التّواصل و الأعراف اللّسانية الإجتماعية و العلاقات بين المتخاطبين(35).

بيّنت الأفعال الكلامية التي وجّهها الوسيط أبو الوفاء المهندس، إنعكاسية الحديث على التوحيدي بتوفر شرطَيْ الإلزام و التّأثير، خاصة في التزامه العمدي للسّجع بعد صيغتيْ التهديد و الأمر:

((و متى لم تفعل فانتظر عقبي إستحياشي منك و توقع قلّة غفولي عنك...))، فأصبحت أفعالا ذات نتيجة إلزامية و تأثيرية متبوعة بقوله: ((كأنّك أصبحت حرّان، حيران يا أبا حيّان)).

التزم أبو الوفاء في قوله هذا السّجع المتوازي ليشدّ به على الدّلالة و ليكون له وقع على سمع المتلقي، فأصبحت هذه الأسماء بمقتضى هذا السّجع و هذه الرّنة العروضية في الوزن المتشابه نعوتا ذات نتيجة تأثيرية و إلزامية، إستخدمها الوسيط ليُحدِثَ بها تأثيرا على أحاسيس المستمع و المتلقي و لتحقيق الجهر بالإهانة و التّوبيخ، حيث ((لا يمكن للفعل الإنشائي أن يكون ناجحا و تامّا و منتهيا إلاّ إذا أحدث تأثيرا على المتلقي (المستمع)،بفهم كلٌّ من المعنى و الصّيغة التّعبيرية Valeur de la locution))(36).

فهم التّوحيدي معاني أقوال الوسيط ممّا اضطرّه إلى استجابة فوريّة لطلبه و امتثاله لإرادته و أمره بقوله: ((أنا سامع مطيع و خادم شكور، لا أشتري سخطك بكلّ صفراء و بيضاء في الدّنيا، و لا أنفر من التزام الذنب و الاعتراف بالتّقصير، و قلبي يهفو و يجمع و مثلك يعفو و يصفح و أنت مولى و أنا عبد، و أنت آمرٌ و أنا مُؤتمِر، و أنت ممثل و أنا ممتثِل، و أنت مصطنِعٌ و أنا صنيعه))(37).

حَوَت أفعال الوسيط المتمثّلة في فعل الطّلب الإيجابي أي فعل الأمر، و أفعال الطّلب السّلبية التي تمثّلت في الإهانة و التّحقير و التّوبيخ ذات نتيجة إيجابية، القوّة الإلزامية و التّأثيرية على التّوحيدي، لأنّ ((القول يثير عادة و كثيرا بعض التأثيرات على الأحاسيس و الأفكار و أفكار المستمع، و يرتبط بالنّية و القصديّة في إثارتها، و نسمي هذا النوع من الأفعال الفعل ذا النتيجة التّأثيرية أو الإلزامية Acte perlocutoire ou une perlocution))(38).

يتوجّه الخطاب في هذه الرّسالة إلى المخاطَب أو المرسَل إليه أبي الوفاء المهندس/الوسيط، صديق أبي حيان التّوحيدي، و نلمس فيه خضوعا لشخصه و لحالته و انتمائه إلى مرتبة عليا في السّلم الاجتماعي و حتّى السياسي.

و يمكننا أن نحدّد من خلال خطابه نوع هذا الأفق الاجتماعي بكلّ مستلزماته و شروطه و محاذيره و منزلقاته التي ساهمت في إبداع نصوص "الإمتاع و المؤانسة"و جمعها في الكتاب الذي بين أيدينا. و يُعدُّ هذا الأفق معاصرا في حياة القرن الرّابع الهجري المتقلّبة و المتصدّعة سياسيا و اجتماعيا على نحوٍ غير مأمون على حياة بعض المثقفين المرهونة غالبا بشفاعة الشّفعاء و مصاحبة السّادة، لذلك تعثّرت قدرات المبدع و مواهبه أمام وضعه المتأزّم و صار الفعل الإبداعيُّ مكبوتا بعض الشيء أمام سلطة الوسيط القاهرة ممّا اضطرّ التّوحيدي إلى فكّ بعض القيود و تبديد بعض الضغوط باستجابته لمقتضى حال المجلس حتّى يأمن على نفسه و يطمئنّ على يُسر حاله.

الهوامش

(1) نور الدين بلقاسم، أصداء المجتمع والعصر في أدب أبي حيّان التوحيدي، ط1، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، 1984، ص 31.

(2) محمد عبد الغني الشيخ، أبو حيّان التوحيدي رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد، ج1، الدار العربية للكتاب، 1983، ص 165.

(3) مصطفى تواتي، أبو حيّان التوحيدي، دراسة تحليلية، ط2، دار التقدم للنشر والتوزيع، تونس، ص 28.

(4) م ن، ص ن.

(5) ينظر مقدمة الإمتاع والمؤانسة لأحمد أمين، ص م، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

(6) محمد بن حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ط1، وكتبة الطالب الجامعي، 1986، ص 95.

(7) CATHERINE KERBRAT ORECCHIONI, ***L'énonciation de la subjectivité dans le langage***, Armand colin, Editeur, Paris, 1980, p 21

(8) DOMINIQUE MAINGUENAU, ***Pragmatique pour le discours littéraire*** , Bordas, Paris, 1990, P123

(9) يندرج قانون الإخبارية في القواعد التي وضعها جرايس Grice، التي تساهم في تشكيل التواصل أو التبادل الكلامي. ويضمن هذا القانون للمخاطب قدرا كافيا من المعلومات، ويرتبط بقانون الشمولية Loi d'exhaustivité.

(10) DOMINIQUE MAINGUENEAU, ***Pragmatique pour le discours littéraire***, p 128.

(11) الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص1.

(12) م ن، ص ن.

(13) محمود سليمان ياقوت، علم الجمال اللغوي (المعاني، البيان، البديع)، ج1، دار المعرفة الجامعية، ص 338 .

(14) الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 3.

(15) محمود سليمان ياقوت، علم الجمال اللغوي (المعاني، البيان، البديع)، ج1، دار المعرفة الجامعية، ص 338.

(16) الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 2.

(17) الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 2.

(18) ينظر مقدمة الإمتاع والمؤانسة لأحمد أمين، ص ل.

(19) محمود سليمان ياقوت، علم الجمال اللغوي، ج1، ص 429.

(20) م ن، ص 430.

(21) الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 6.

(22) م ن، ص 6.

(23) م ن، ص ن.

(24) محمود سليمان ياقوت، علم الجمال اللغوي، ج1، ص 424 .

(25) الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 7.

(26) AHMED MOUTAOUAKIL, ***Réflexions sur la théorie de la signification dans la pensée arabe***, publication de la faculté des lettres et des sciences de Rabat, thèse et mémoire n°8, 1982, p177.

(27) Ibid p178.

(28) Ibid.

(29) ينظر محمد السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وشرحه الأستاذ نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، 1403هـ – 1938م ، ص ص 305، 304.

(30) تؤكّد نظرية أفعال الكلام التي توضّحها أعمال أوستين (1962)، أنّ كلّ ملفوظ يخفي بعدا كلاميا، بمعنى الفعل الذي تشكّله واقعة الكلام بالذات، فلمّا نستخدم أمرا مثلا فنحن لا نتحدّث على الأمر فحسب، بل نصدر أمرا ، وبهذا نقوم بفعل.

(31) توجد خمسة أصناف للتلفظ حسب تصنيف أوستين، استنادا للقيمة الكلامية وهي: 1- أفعال الحكم Verdictifs، 2- أفعال الممارسة Excercitifs، 3- أفعال الوعد Promissifs، 4- أفعال السلوك Comportatifs، 5 – أفعال العرض Expositifs.

(32) AUSTIN, ***Quand dire c'est faire***, Edition du seuil, traduction Gives-Lane 1970, p 157.

(33) Ibid,p161.

(34) DOMINIQUE MAINGUENEAU, ***Pragmatique pour le discours littéraire***, p113.

(35) ينظر رولان بارط وآخرون، الأدب والواقع، ترجمة عبد الجليل الأزدي ومحمّد معتصم، ط1، مطبعة تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1992، ص 129.

(36) AUSTIN, ***Quand dire c'est faire***, p124.

(37) الإمتاع والمؤانسة ج1، ص 8.

(38) AUSTIN, ***Quand dire c'est faire***, p114.